٧٤ شمس الدين الرملى مجدد القرن العاشر

شمس الدين الرملى. . هو محمد بن أحمد بن حمزة الرملى. . كان فى مقدمة المجددين فى الإسلام على رأس المائة العاشرة الهجرية.

وقبل أن نطوف بسيرته كما سجلتها بعض الكتابات، لنا أن نتوقف لحظات عند صورة العالم فى القرن العاشر، متأملين هذا القرن الذى امتد من سنة ١٤٩٦م إلى سنة ١٥٩١م. حيث كانت الدولة التركية أقوى دولة إسلامية فى العالم، وكان على رأسها السلطان بايزيد الثانى، ابن السلطان محمد الفاتح. وكان ملكاً محباً للسلام، فوقفت هذه الدولة فى عهده عند الحدود التى فتحها أبوه. وقد خرج عليه ابنه سليم الأول، فانضم إلى جيش الانكشارية، فترك له الحكم سنة ١٥١٢، فقام السلطان سليم بالحكم، وابتدأه بقتال الطامعين فيه من إخوته وأبنائهم، إلى أن قضى عليهم، ثم توجه إلى قتال الشاه اسماعيل مؤسس الدولة الصفوية بفارس، وانتصر عليه، واستولى علي قاعدة ملكه تبريز، وانتزع منه الفرق. ثم توجه إلي قتال المماليك بمصر فحاربهم وأسقط دولتهم، وانتزع لنفسه الخلافة الصورية من آخر خلفاء بنى العباس بمصر.

وبعد أن توفى السلطان سليم الأول خلفه ابنه السلطان سليمان القانونى، وفى عهده وصلت الدولة إلى أوج عظمتها، حيث استولت على بلاد الصرب والمجر وغيرها من بلاد أوربا الشرقية، ووصلت فتوحاته إلى النمسا فى أوربا الغربية، ثم المغرب العربى، واليمن فى المشرق العربى، وواكب هذه الفتوحات إصلاحات دينية ومدنية، إلى أن توفى وخلفه ابنه سليم الثانى، الذى لم يكن كأبيه السلطان سليمان القانونى من ناحية الصفات التى تمكنه من التوسع والإدارة فى هذه المملكة

العظيمة، ولذلك لم يكن هناك من الإنجازات التى تُنسب إليه سوى استيلائه على مدينة تونس، وفتح الباب أمام الدول الأوربية ـ وخاصة فرنسا ـ لدخول رعاياها كمبعوثين، مما كان له كبير الأثر بعد ذلك لازدياد نفوذهم فيها. وتوفى ليخلفه ابنه مراد الثالث، الذى بدأ عهده بقتل إخوته حتى لا يُنازعوه فى الملك، وفى عهد هذا السلطان زادت الامتيازات الأجنبية فى داخل أراضيه، وخاصة فرنسا، وإنجلترا، وإيطاليا. كما وقعت فى عهده بعض الحروب خاصة مع الدولة الصفوية بفارس، وانفصلت بعض المناطق الأوربية مثل «ترنسلفانيا» التى أعلنت العصيان عليه بتحريض ومساعدة من النمسا وألمانيا.

وطبيعى والأمر كذلك أن ينقسم المسلمون فى هذا إلى دولتين شرقيتين غير الدولة التركية العثمانية. الأولى هى الدولة الصفوية بفارس، والثانية هى الدولة المغولية ببلاد الهند، وأن تضعف بلاد المغرب العربى حتى تكاد بلاده تسقط فى يد الأسبانيين والبرتغاليين.

لكن برغم كل شئ فإن المسلمين فى هذا القرن كانوا على شئ من القوة، إذ كانت الدولة العثمانية التركية مرهوبة الجانب بين الأمم الأوربية، يقابل هذه القوة السياسية ضعف فى الناحية العلمية، حيث فشا الجهل، وأضافوا عداوة العلوم الأدبية، إلى عداوتهم للعلوم الفلسفية، وطغت العامية على الفصحى بعد استيلاء الدولة العثمانية على معظم بلاد العرب، وجعلها اللغة التركية هى اللغة الرسمية فى الدواوين الحكومية، وبهذا ازداد العلم هواناً أمام غيبة لغة البلاد، وأمام استشراء نفوذ مُدَّعى التصوف وما يتسمون به ـ وقتئذ ـ من جهل فاضح.

وفى هذا المناخ ظهر شمس الدين الرملى ليكون أحد المجددين فى هذا القرن العاشر الهجرى، حيث ولد عام ٩١٩ هـ بالقاهرة، وكان مختلفا عن أترابه، وإلا فما معنى أن يذكر الإمام الشعرانى فى طبقاته الوسطى بأنه صَحِبَ هذا المجدد (أى شمس الدين الرملى) منذ كان يحمله على كتفه طفلاً صغيراً إلى أن كبر، وأنه مارأى طفلا واعياً بدينه، عارفاً عَمَّا يغضب ربه، منصرفاً عن اللهو واللعب مثل هذا الطفل، الذى نشأ على الدين، والتقوى، والصيانة، وحفظ الجوارح، وطهارة العرض، ونقاء السريرة. وقد رباه والده فأحسن تربيته.

ويذكر الشعرانى أن هذا الوالد كان يعمل بالتدريس، وعلى يديه تلقى هو ـ أى الشعرانى ـ العلم، فقد لقن ابنه ـ شمس الدين ـ خلاصة علمه وخبرته فى الفقه،

والتفسير، والنحو، والصرف، والمعانى، والبيان، والتاريخ، إلى درجة أن الابن استغنى بالوالد وعلمه عن التردد إلى غيره من علماء ذلك العصر الذى امتهن فيه العلم. وفى ذلك يذكر الإمام الشعرانى ـ نقلاً عن هذا الوالد ـ قوله: «تركت محمداً بحمد الله تعالى لا يحتاج إلى أحد من علماء عصره إلا فى النادر».

وطبيعى وقد كان والده يعمل بمهنة التدريس فإنه قد احتل المكان الذى كان يشغله هذا الوالد، ليحضر درسه أكثر تلاميذ والده، حتى ولو كانوا أكبر سناً منه. وإذا سُئِلَ أَحَدُ هؤلاء التلاميذ عن السبب الذى يدعوه لملازمة هذا العالم الشاب ـ كما كانوا من قبل يلازمون والده. رد قائلا: لأنى أستفيد منه ما لم يكن لى به علم.

وهكذا أصبح مألوفاً أن يقصد هذا المجدد طلابُ العلم من كل الأقطار العربية والإسلامية. حتى يذيع صيته، وتعم شهرته، ويستحق بين أهل زمانه أن يُلقب بالشافعى الصغير، لأنه كان مرجع أهل مصر وغيرها من الأمم فى تحرير الفتاوى الفقهية، وكان مع هذا يتولى منصب إفتاء الشافعية بمصر.

ومن الآثار العلمية لهذا المجدد الصالح أنه كان من أوائل الذين ابتدعوا أسلوب الحواشى، وله فى ذلك العديد من الحواشى المعتمدة مع السابقين.

والحق أن هذه الطريقة ـ طريقة الحواشى ـ برغم مآخذ النقاد عليها، فإنها كانت وسيلة لتعلق الناس بهذا النوع من التأليف، إلى درجة أنهم أهملوا النظر فى كل كتاب ليس عليه شرح وحاشية وتقرير. وكان لهذا أثره فى ذيوع وانتشار كتب هذا العالم المجدد فى جميع الأقطار العربية والإسلامية، حتى صارت كتبه فى مقدمة مراجع المذهب الشافعى.

ولهذا وغيره كان شمس الدين الرملى يعد مجدداً فى القرن العاشر، إذ أنه صار فى مقدمة العلماء الذين يُنْتَفَعُ بعلمهم، وأن كتبه كانت فى مقدمة الكتب التى يحتاج إليها الباحث فى العلوم الشرعية.

وهكذا ظل هذا العالم الصالح المنصرف إلى علمه على عهده بالعلم بحثاً ودرساً إلى أن توفى فى عام ١٠٠٤ هـ ليدفن بمدافن القاهرة.

* * *